ابـــن ســـــلام ناقـــــــدا

حميد قاسم هجر

قسم اللغة العربية، كلية الاداب، جامعة ذي قار

المقدمة

النقد العربي لمحة موجزة

بدأ النقد العربي – منذ بداياته في العصر الجاهلي– نقداً تأثريا مبنيا على الذوق الفطري . يستحسن الناقد بذوقه الفطري قصيدة أو جزء قصيدة او بيتاً،او حتى نصف بيت، ما اسرع ما يتأثر ويندفع الى التعميم في الحكم، واذا الشاعر في نظر الناقد المتذوق اشعر الناس ، او اشعر العرب.

ولم يقف النقد التأثري الفطري المبني على الذوق والعرف العربي عند حدود العصر الجاهلي ،ولكنه تجاوزه الى ما بعده من الزمن . ففي عصر الحلفاء الراشدين تطور النقد العربي نوعا ما بظهور بعض الاحكام المعللة ، كتلك الاحكام التي تروى عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب على شعر زهير بن ابي سلمى.

وبعد ذلك تطورت حركة النقد بدخول المقاييس اللغوية والنحوية ضمن ميدان الحكم على الشعر منذ أواخر العصر الاموي. ومع بداية العصر العباسي ،نشأت اكثر العلوم الاسلامية والعربية ،وبدا تدوينها ، ونقل الى العربية ما نقل من علوم اليونان والفرس والهند ورافق تلك النهضة العلمية تطور في الذوق.

وثم ان النقد العربي اخذ يتأثر بتلك العناصر الثقافية الاجنبية ، وكان من الطبيعي أن يتأثر النقد العربي تبعاً لهذه الثورة العلمية والادبية الجديدة، ويفيد منها . فظهرت ..محاولة تحويل النقد الادبي الى علم له اركانه الثابتة ، وحدوده الظاهرة[1] .

ولذلك نصل الى عصر ابن سلام الجمحي في وقت تطورت فيه المفاهيم والمقاييس النقدية، من مجرد حكم غير معلل الى حكم نقدي يعتمد على المقاييس النقدية الاتية*:-

- النحو واللغة والعروض
- تنوع الاغراض
- عمق الاثر الفني
- طول النفس
- الاصالة والابتكار
- المقياس التاريخي

وعندما وصلنا لمرحلة التأليف والتنظيم العلمي ،اعتمدت بشكل كبير على الاراء النقدية السابقة وما شاع بين النقاد المعاصرين من احكام نقدية فاتسعت آفاق النقد عند العرب .وسنجد – في الصفحات القليلة اللاحقة – ان ابن سلام الجمحي قد حاول ان يؤانس في كتابه ((طبقات الشعراء)) بين الاراء النقدية السابقة ، وتلك الاراء المعاصرة ، وبين الاراء التي صدرت عنه شخصياً. فمهَّد عمله هذا لظهور حركة نقدية تساير حركة النشاط الادبي ، وتحاول ان تضع المقاييس النظرية للحكم على الشعراء.

محمد بن سلام الجمحي

مولده ونشأته

وهو ابن عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله بن سالم الجمحي ، مولى قدامه بن مظعون الجمحي فهو جمحي بالولاء ،ولد بالبصرة عام 139هـ – 756م وعاش في بغداد ، وتوفي بها عام 232هـ – 847 م عن نيف وتسعين عاما.نشا في بيت علم وأدب . وابوه كان راوية ، واخوه عبد الرحمن من رواة الحديث. درس على كثير من علماء عصره[2]، ويتجاوز عدد من سمع لهم وروى عنهم سبعين شيخاً من بينهم : أبن عثمان وعبد الملك الاصمعي وخلف الاحمر وابو عبيده معمر بن المثنى وابو زيد الانصاري والمفضل الضبّي ويونس بن حبيب وآخرون...**

منزلته العلمية

حظي ابن سلام بين معاصريه بمكانة مرموقة، كان موضع اجلال للآخرين وروى عن كثير من علماء عصره أمثال : احمد بن حنبل واحمد بن يحيى ثعلب والمازني والرياشي وابن خليفة الجمحي وابن اخت ابن سلام وهوا لذي روى عنه كتاب الطبقات باجازته.

ومن مؤلفاته [3]:

1. كتاب الفاصل في ملح الاخبار والاشعار.
2. كتاب بيوتات العرب
3. كتاب طبقات الشعراء الجاهلين والاسلاميين
4. كتاب الحلاب واجر الخيل.
5. كتاب غريب القرآن.

منهج ابن سلام في كتابه

حاول ابن سلام أن يمزج في كتابه بين النقد وتاريخ الادب، فقد الف كتابه في وقت كانت فيه المادة الادبية كثيرة متوافره ، مما أتاح له فرصة الاختيار المنظم، والتقسيم المتعمد ،محاولاً اظهار الجيد والاجود. ((وهو في كتابه قد اعتمد على آراء الاقدمين ووجهات نظرهم، وتأثر باحكام الاصمعي وتصنيفه وتأثر بعنوان كتاب الاصمعي الى حد ما، إلا ان شخصية ابن سلام في كتابه تبدو أوضح وأكثر دقة من شخصية الاصمعي في كتابه)) [4].

((وقد تميز عن علماء جيله بانه اول من قام بينهم بمحاولة جادة ،تمثلت في جمع شتات آراء سابقيه ومعاصريه في النقد الادبي وتنظيمها علمياً)) [5]

واذا ما نظر الى الكتب التي ألفت في عصره، او كانت سابقة عليه وجدنا ان مؤلفيها كانوا يسعون الى جمع الروايات المختلفة في الشعر والقصص والاخبار والانساب والحكم والامثال، وان اهتمت بعض هذه الكتب بموضوع بعينه– مثل كتاب الاغاني والكامل والبيان والتبيين ((فان ابن سلام كان يهدف الى تقدير الشعراء وفقا لمقاييس معينة تفتق عنها ذهنه وعلمه وذوقه الشخصي)) [6]

وبناءا على هذا نلاحظ ان هناك فرقا واضحا بينه وبين ادباء ونقاد عصره لانه عمل بشكل منظم واتبع اسلوبا علميا ناضجا لذلك سبقهم بكتابه (طبقات فحول الشعراء) وبذلك وضع اللبنة الاولى في بناء النقد العربي وتوسيع مجاله وتفتيح آفاق جديدة فيه [7].

قسم ابن سلام كتابه الى قسمين:

1. مقدمة قصيرة يتحدث فيها عن قضايا نقدية مهمة
2. تصنيف الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين وفقا لترتيب معين وذلك بتقسيمهم الى طبقات. ومن خلال الصفحات القليلة القادمة يحاول البحث عرض ملخص. عن محتوى كل قسم حتى تتضح الصورة، محاولاً – قدر الامكان – ابراز اهم القضايا النقدية التي طرحها ابن سلام وكيف نظر إليها.

اولا: المقدمة

تعتبر المقدمة (خطوة علمية رائدة نحو تقعيد النقد وتركيزه، ومحاولة الخروج به من تلك النزعة التأثرية) [8]

وعلى الرغم من أنها لا تشغل حيزا كبيرا في الكتاب ، فانها تعد جزءا اساسيا فيه لأنها تحتوي على قضايا نقدية مهمة ، من اهمها:

1. التاكيد على أهمية وجود الناقد المتخصص

رأى ابن سلام انه لابد للشعر من نقاد محترفين ، ورواة معتمدين يرجع اليهم عند الحاجة فهو يرى ان الناقد يعرف بالمعاينة .

و: ((ليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ، ولا ما وضع المولدون))[9]

2. شروط الناقد المتمكن

مع ان ابن سلام يرى بان ((الذوق الشخصي اساس الحكم على الشعر))[10]

الا انه ليس كل من قال رأيا في الشعر اعتد به بل لا بد ان تتوافر في الناقد وكما يرى من الشروط الاتية:

أ- الذوق والفطرة: وهي الموهبة التي ينبغي ان تتوافر في الناقد فبدونها لا يستطيع الناقد ان يتصدى للشعر.

ب- الدربة والممارسة: يرى ابن سلام بان الدربة هي التي تربى الذوق وتعين على تحديد موضع الاستحسان في الشعر .ويروى عن خلف انه رد على من قال له: (اذا سمعت بالشعر واستحسنته ، فما ابالي ما قلت فيه انت واصحابك ، فقال له : اذا اخذت انت درهما فاستحسنته ، فقال لك الصراف انه ردئ ،هل ينفعك استحسانك اليه))[11]

جـ – المعرفة بخصائص الشعر : اذا ان لكل فن أسراره التي لا يكتشفها ويستوعبها سوى الخبير بذلك الفن . ولذلك يقول ابن سلام : ((للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر اصناف العمل والصناعات))[12]

د – القدرة على تحقيق النصوص: فَطَن الجمحي الى ضرورة التحقيق من صحة النصوص وصحة نسبتها ، وهذه اولى عمليات النقد واساسه المتين وخصوصا في تلك الفترة التي كثر فيها الوضع والانتحال.ويبدو ان هذه الشروط الواجب توافرها في الناقد كما يراها ابن سلام تتطابق بشكل واخر مع الرؤيه الحديثه.

3– اثبات وجود الانتحال في الشعر

كان الكلام في الشعر الموضوع قد بدأ في الطغيان على الساحة النقدية ،فقد تزامن عصر ابن سلام مع العصر الذي كادت تنتهي فيه الرواية ،وليبدأ عصر التدوين في وقت نبه بعض العلماء على ان هناك شعراً موضوعاً وجاء ابن سلام ليعيد صياغة آراء القدماء او المعاصرين، التي كانت فردية في معظمها ،وفق بحث منهجي علمي منظم ولذلك ((كان اول من تكلم عن الشعر الموضوع بمنهج علمي، فجعل اساس قبول الشعر أن يؤخذ عن طبقة لم تفسد ، ممثلة – على ايامه – في البدو ، او ما يأتينا مدوناً شائع الرواية، عرفه العلماء وارتضوه))[13].

وقد رأى بان الاسباب التي ادت الى الانتحال تتمثل فيما يأتي:***

1. الشعر الذي ادخل على العلماء غفلة منهم ، او جهلاً بوضعه وانتحاله ومنه الشعر الذي يرويه محمد بن اسحاق منسوباً الى الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، والى عاد وثمود وغيرهم .
2. اختلاط الامر على بعض الرواة.

فربما رووا شعراً لشاعر وهو ليس له، فبيت النابغة المشهور:

ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

يدعيه بنو سعد بن زيد مناه لرجل من بني مالك بن سعد ،يقال له : شقة [14]

3. محاولة بعض العشائر ان يتزيدوا في الواقع ويستكثروا في الاشعار فقد حاولت بعض القبائل ان تنشئ لنفسها مجداً ،او تضيف الى امجادها ومفاخرها شرفاً.

وابن سلام يرجع في هذا الرأي الى قول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ((.... كان الشعر علم قوم لم يكن لهم اصح منه))[15] وأنه يعقب عليه بقوله:((فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم،ولهت عن الشعر وروايته .فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح ، وطمأنت العرب بالأنصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ،فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير)[16] ولذلك فهو يرى انه ((لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها ، استغل بعض العشائر شعر شعرائهم ،وما ذهب من ذكر وقائعهم ،وكان قوم قلت وقائعهم واشعارهم ، فارادوا ان يلحقوا بمن لهم الوقائع والاشعار ،فقالوا على السنة شعرائهم))[17].

4 – كذب الرواة ووضعهم الشعر ونحله

كان الراوية يحظى من العطاء والنوال بما لم يحظ به الشاعر المنشئ ،فكانت الدولة تحاول ان تقيم عروبتها على اساس متين من كنوز العرب وذخائرها . وما دامت الرواية قد صارت صناعة تطلب للكسب، وتبتغي للمعايش فلا بد من ان يلحقها ما يعتري الصناعات من غش وخداع وتدليس .ولذلك يقول ابن سلام: ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الاشعار التي قيلت ويقول عن حماد الرواية انه كان ((ينحل شعر الرجل غيره ،وينحله غير شعره ، يزيد في الاشعار)) [18].

ويقدم لنا ابن سلام طائفتين من الرواة التي روت لنا شعرا منتحلا كثيرا وتنسبانه الى الشعراء الجاهليين:

1. طائفة كانت تحسن نظم الشعر وصوغه ، وتضيف ما تنظمه وتصوغه الى الجاهليين ، ومثل لها بحماد ... وخلف الاحمر.
2. وطائفة لم تكن تحسن النظم، ولا الاحتذاء على امثلة الشعر الجاهلي ولكنها كانت تحمل كل غثاء منه وكل زيف، وهم رواة الاخبار والسير والقصص من مثل ابن اسحاق)) [19]

ثانياً : موضوع الكتاب

الكتاب كما يدل عليه عنوانه موضوع في طبقات الشعراء ،فالتفاضل بينهم وإنزال كل في المنزلة التي تلائمه هو أساسه وقوامه ودعامته الكبرى .((والظاهر ان الكتاب في الاصل كتابان، احدهما في طبقات فحول الشعراء الجاهليين والاخر في فحول الشعراء الاسلاميين))[20]

فالكتاب في قسمين ،مشاهير الشعراء الجاهليين ، ومشاهير الشعراء الاسلاميين ((أي ان، ابن سلام جعل ظهور الاسلام حداً فاصلا بين عهدين ، ... ولم يفرد المؤلف للنظر بين قسما في كتابه لانهم لا يستقلون بمرحلة خاصة))[21]

وقد صنف ابن سلام الشعراء في طبقات ،فجعل للشعراء الجاهليين عشر طبقات ،((ثم جعل شعراء الإسلام في عشر طبقات اخرى، منتهيا بذلك الى آواخر العصر الأموي ، ولم يلن بالا الى من نشا بعدهم من شعراء حتى عصره))[22] وأضاف طبقة خاصة لشعراء اليهود وأخرى للرثاء وكذلك لشعراء القرى. وفي هذا التقسيم وضع أربعة رهط في كل طبقة،.. فاختار أربعين شاعراً في طبقات الجاهليين وأربعين في طبقات الشعراء الإسلاميين، وأربعة شعراء في طبقة أصحاب المراثي واثنين وعشرين شاعرا في الشعراء الإسلاميين واثنين وعشرين شاعراً في طبقة شعراء القرى العربية، وثمانية في طبقة شعراء اليهود فهم جميعاً مائة وأربعة عشر شاعراً .

((وداخل الطبقة الواحدة كان يرتب الشعراء بحسب أهميتهم، وليبدأ عادة بذكر نسب كل واحد منهم ، بتفضيل شاعر على شاعر او على كل الشعراء ،او الموازنة بينهم ، ويورد مع هذه الآراء فيدعمها من شعرهم ، وفي مواضع قليلة يفسر الكلمات الغريبة التي ترد في الشعر او يورد آراء علماء اللغة فيها))[23]

وعلى ما يبدو ان ابن سلام كان ميالا لمنهج العلماء اللغويين المتعصبين للقديم والقدماء [24] وربما كانت لابن سلام وجهة نظر في تقسيمه للشعراء الى طبقات لعله اراد ان يضع الاسس العلمية في الدراسات الادبية والعلمية [25] ولكنه لم يذكر صراحة القواعد التي بنى عليها اختياره لشعراء كل طبقة واتخاذها اساسا للمفاضلة بين اصحابها ،غير بعض الاشارات القليلة والقصيرة المنبثة عبر الكتاب كله ، ومن اهم المقاييس والمعايير التي اعتمد عليها :

1. **الزمان:** قسم ابن سلام الشعراء الى جاهليين واسلاميين فوضع كل شاعر سواء كان جاهلي او اسلامي او مخضرم في منزلته واحتج لكل شاعر بما وجد له من حجة وما قال فيه العلماء[26] ويظهر احتكام ابن سلام الى الزمن ، في اهماله لشعر معاصريه.
2. **المكان** : وذلك لان ابن سلام وزّع الشعراء بين الجاهية والاسلام ، وقسم هؤلاء واولئك الى طبقات ثم نظر فوجد ان هناك شعراء لم ينتشر شعرهم بين العرب كافة ، بل ظل شعرهم محصوراً في مناطقهم لا يتعداها الا قليلاً ، وربما لم يتصلوا بالقبائل العربية الاخرى ويذكروها في شعرهم .والذين اطلق عليهم محمد مندور " الشعراء الاقليميين" [27] ولذلك جمعهم ابن سلام في باب شعراء القرى : مكة ، المدينة ، الطائف ، اليمامة، البحرين.

ولم يكتف بهذه ، بل فاضل بين شعراء كل قرية [28] وقد يمثل افراد شعراء القرى بقسم مستقل.

3. **الفن الادبي:** من الشعراء من انفرد بفن بذاته ، وقف عليه شعره ، وهؤلاء الشعراء لم يقصدوا الى ذلك الفن ، بل ربما صادف ذلك الاتجاه ميلاً في نفوسهم او ان حوادث الدهر قد اثرت فيهم وجعلت نفسياتهم تنعكس في اشعارهم وكسوها بطابع معين، وهؤلاء الشعراء هم اصحاب المراثي كمتمم بن نويرة والخنساء وأعشى باهله وكعب بن سعد الغنوي.

ولقد فطن ابن سلام بذوقه الادبي السليم الى ان هؤلاء الشعراء هم انسانيون ليس كغيرهم ممن صدروا عن فن ، قالوا الشعر لشفاء نفوسهم مما تجد ، فلن تأتي مراثيهم مدحا للميت فحسب، بل عبارة عن ألَمهم لفقد ذويهم، حتى ان المديح نفسه ليلونه الاسى ، ولذلك افرادهم – فيما – نظن– بباب خاص ، وان لم يذكر السبب[29] .

ثم انه لم يكتف بهذا ، بل فاضل بينهم كما فاضل بين شعراء القرى، وعلى ما اعتقد قد فضل متمم ابن النويرة عليهم [30] .

فكانت تلك اهم المعايير التي اعتمد عليها ابن سلام في اختياره لشعرائه . ومهما كان الامر، وبغض النظر عن المقاييس النقدية الحالية ، فان ابن سلام كان له فضل السبق في وضعها، ان لم يكن الى ابتداعها والى تطويرها وتنظيمها وتطبيقها ضمن كتاب.

أسس المفاضلة بين الشعراء

رأينا ان ابن سلام قد حاول ان يطبق المعايير التي تم ايرادها عند اختيار الشعراء الذين ضمتهم طبقاته . ولكن ابن سلام لم يكتف بالمعايير السابقة ، بل حدد معايير أخرى ، طبقها على شعرائه عندما حاول ان يصنفهم في الطبقات. وبغض النظر عن مدى دقة تلك المعايير والأسس ، ومدى توفيق ابن سلام في استخدامها فان اهمها:

1. **قدم الشاعر:**

جعل ابن سلام من قدم الشاعر سببا ومعياراً يحتكم اليه ولذلك فقد قدم الشعراء الجاهليين في اول كتابه وفضلهم بذكرهم اولاً ولكن يذكر شعراء الجاهلية الاقدم فالاقدم .كما أدخل في طبقات الجاهليين أحيانا بعض المخضرمين من الذين كانوا اقرب الى الجاهلية في شعرهم منه الى الاسلام.

ويبدو من هذه الخطوه ان ابن سلام قد جعل من القدم معيارا لايمكن الاستغناء عنه في حين ان كثيرا من القدماء لم يكونوا بمستوى من جاء من بعدهم.

2. الكم الشعري

اتخذ ابن سلام من كثرة شعر شعرائه مقياسا للمفاضلة بينهم فهو يقول – على سبيل المثال– عن شعراء الطبقة السابعة :– (وهم اربعة رهط محكمون مقلون وفي اشعارهم قلة فذاك الذي اخبرهم)[31]

ويقول في الطبقة الرابعة:–(وهم اربعة رهط فحول الشعراء موضعهم مع الاوائل وانما أخل بهم قلة شعرهم بايدي الرواة) [32] .

2. الجودة:

وهو يقدم الكثرة عليها فاذا اتفق شاعرهم في الاجادة ولكن ما روي عن احدهما كان اقل مما روي عن الاخر، وضع الثاني في مرتبة اسمى من مرتبة الشاعر الاول، فهو يقول – مثلا– عن الاسود بن يعفر: – (له واحدة طويلة رائعة لاحقة بأول الشعر لو شفعها بمثلها قدمناه على أهل مرتبته). [33] وعلى ما اعتقد ان هذا المعيار ليس من العدالة والانصاف فالانتاج الكثير لاينم دائما على سمو الشاعر وعلو همته

3. تعدد الأغراض

فاذا اشتهر شاعران بفن من الفنون كما اشتهر كثير وجميل وكان احدهما يفوق على الاخر فيه كما فاق جميل كثيراً فان كثيرا على الرغم من ذلك يوضع في مرتبة اعلى من مرتبة جميل ، وذلك لأن كثيرا قال في فن آخر غير الغزل وهو المدح وفي ذلك يقول ابن سلام: (وكان لكثير في التشبيب نصيب وأخر وجميل مقدم عليه وعلى اصحاب النسيب جميعا في النسب. وله في فنون الشعر ما ليس لجميل وكان جميل صادق الصبابة وكان كثير يتقول ولم يكن عاشقا وكان راوية جميل)[34]

وعلى الرغم من ان كثيرا كان راوية جميل وكان جميل مقدم عليه في النسيب الا ان ابن سلام وضع كثيرا في الطبقة الثانية وجميلاً في السادسة متخذا من تعدد الاغراض مقياسا للمفاضلة وربما كان ابن سلام (متأثرا بآراء الأقدمين كألاصمعي)[35]

ويبدوهنا انه محق في هذه النقطه لان القول باغراض متعدده في الشعر توحي بالقدره والامكانيه الكبيره لدى الشاعر.

4. واقعية العاطفة :

اعتمد ابن سلام على ذوقه الفني والنقدي للتعرف على صدق الشاعر في عاطفته وجعل من واقعية العاطفة معيارا يتوصل عن طريقه للمفاضلة بين شعرائه وقد راينا آنفا ان ابن سلام قد ميز بين الشاعر العاشق حقا والشاعر غير العاشق ولولا ان كثيراً تميز على جميل – كما يرى ابن سلام– بتعدد الاغراض لما قدمه على جميل.

5. النسب وشرف المحتد

ومع ان ابن سلام قد اعتمد بشكل رئيس على المعايير السابقة عند مفاضلته بين الشعراء الذين عرض لهم في كتابه الا انه – وفي حالات قليلة– وفي اثناء مفاضلته بين بعض الشعراء المغمورين وبين شاعر يمتلك شرف لمكانه وسمو نسبه ، وكان يقدم الثاني على الاول فهو يقول عن عمرو بن شاس : – (اكثر طبقته شعرا وكان ذا قدر وشرف ومنزلة في قومه)[36] وفي رايي ان هذا المعيار قد جانب الموضوعية والرؤى العلمية الصحيحة.

على الرغم من ان ابن سلام كان يستأنس بما شاع من اراء سابقيه من العلماء الا انه كان يعيد عرضها باسلوب منهجي وفق رؤيته الخاصة، ويحاول تطبيقها على الشعراء الذي ضمهم كتابه.

واذا حاولنا ان نقسم اراء وأحكام ابن سلام النقدية باعتباره المصدر فانها ترجع الى : – الاحكام التقليدية : – نقصد بالاحكام التقليدية التي شاع استخدامها منذ العصر الجاهلي للحكم على الشعر والشعراء ومن ذلك قول قريش عندما سمعت قصيدتين من قصائد علقمة الفحل : – هاتان سمطا الدهر ... فابن سلام يردد هذا الحكم فيقول : ((علقمة الفحل له ثلاث روائع جياد لا يفوقهن شعر [37]

ولكن ليس معنى هذا ان ابن سلام قد ساير القدماء في كل احكامهم النقدية ، فقد صدرت عنه احكام نقدية لم تتفق مع ما رآه القدماء ومن ذلك قوله في قيس بن الخطيم : ((ومن الناس من يفضله على حسان ولا المحوّل ذلك)) [38]

- احكام نقدية مبتكرة : نقصد بها الاحكام النقدية التي سبق اليها ابن سلام ولم ترد عن غيره من قبل او ان تلك الاحكام لم تنسب لاحد من قبله ومنها قوله : ((للاسود بن يعفر واحدة طويلة رائعة)) وكذلك تفضيله لشعر جميل على شعر كثير.

نقد آراء ابن سلام في طبقاته

يقول الشاعر الامريكي (عزراباوند) : ((ان العمل الفني المثمر حقا هو ذلك الذي يحتاج تفسيره الى مائه عمل من جنس ادبي آخر)) [39]

تؤكد العبارة السابقة ان العمل الفني الحق هو الذي يوحي باكثر من عمل لان الابداع في فن من الفنون لا بد ان يدفع المنتجين في الفنون الاخرى الى المزيد من الابداع .. كل هذه الامور تتمشى مع ما تؤكده فلسفة الفن والنقد الادبي الحديث، من أن قراءة القصيدة هو نوع من إعادة خلقها وان القصيدة الواحدة يمكن ان توحي بعدد من الدلالات بقدر ما يتاح منها من قراءات. وفي ضوء هذه الحقيقة النقدية شرع البحث في قراءة (طبقات الشعراء لابن سلام) محاولا – قدر الامكان – التوقف امام اهم الاراء النقدية التي وردت في الكتاب واضعا نصب عينيه نظرية القراءات المتعددة ، وذلك لانه يؤمن بان لكل عصر مقاييسه النقدية التي تتماشى مع الذوق والحس النقدي والاتجاهات الفكرية والفلسفية السائدة فيه. وبان العادة قراءة قصيدة ما في ظل رؤية عصرية لا تتعارض مع دراسة وجهة نظر نقدية في ضوء العصر الذي ظهرت فيه ، ذلك ان تلك الرؤية النقدية قد مثلت احدى

القراءات المتعددة للأعمال الأدبية واذا كنا قد منحنا انفسنا الحق في إعادة قراءة تلك الأعمال الأدبية – فيجب– في الوقت نفسه– الا نصادر حقوق الآخرين وان نحاول – بدلا من ان ننظر الى تلك القراءات بمنظارنا – ان نستهدي بها في التعرف على طبيعة العصر الذي وجدت فيه وعلى السبب في ظهور تلك الاعمال النقدية في صورتها التي وصلت الينا بها.

وفي رأي البحث ان ابرز الانتقادات التي وجهت لابن سلام في (طبقات الشعراء) يمكن ان تكون كالاتي :

1. ان ابن سلام لم يذكر شيئا عن المعيار الفني الذي بموجبه ميز فيه طبقة على اخرى.
2. انه الزم نفسه بتصنيف الشعراء في عشر طبقات ، في كل طبقة اربعة شعراء وليس هناك ما يبرر التزامه بهذه الارقام كما انه لم يقدم سببا لذلك.
3. لم يحلل ابن سلام الاشعار التي اختارها ولم ينتقدها .
4. الحكم المسبق ليس مقياسا صحيحاً للمفاضلة بين الشعراء .

ومع ان (طبقات الشعراء) قد حظيت باهتمام كثير من الدارسين الا ان بعضا منهم قد حكم على الماضي بمقياس الحاضر فلم يأخذ بعين الاعتبار اولية تلك المحاولة النقدية وظروف العصر الذي ولدت فيه ، وعلى الرغم من ذلك فأن ابن سلام قد اتبع لمعايير نقدية – ذكرت ضمن البحث– اعتمد عليها في التمييز بين طبقة واخرى. بل ان ابن سلام كان سباقا في استخدام المنهج التكاملي في النقد الادبي ، فقد اتبع المنهج التاريخي عندما قسم الشعراء الى جاهليين وإسلاميين، وقدم الجاهليين ، وحاول ان يراعي اثر البيئة في الشعر عندما عقد فصلاً خاصاً لشعراء القرى وقد ذكر ابن سلام في كتابه مائة وأربعة عشر شاعراً فلو أراد أن يقف على أبيات كل شاعر محللاً ومفسرا، لأعوزه ذلك او انه احتاج الى مجلدات وذلك ما يخرجه عن الهدف الذي قصد اليه، وهو الحكم على الشعراء وتصنيفهم دون الانزلاق الى الجزيئات . والاهم من ذلك ، أن نظرة ابن سلام كانت تمثل رأيا نقديا يمثل العصر الذي عاش فيه ولكل عصر مقاييسه!!

ولكن – مع ذلك – فانه يؤاخذ على ابن سلام في (طبقات الشعراء) انه :

1. لم يلتزم بوضع أربعة شعراء في طبقة شعراء المدينة الذين كانوا ستة وشعراء مكة الذين كانوا عشرة، وشعراء الطائف الخمسة، وشعراء البحرين الثلاثة ، واليمامة التي ذكرها دون ان يذكر لها شاعراً واحداً – وكان من الأحرى به الا يذكرها – فاذا كنا قد التمسنا العذر لابن سلام في اختيار العدد أربعة ليؤلف منه شعراء كل طبقة ، فاننا لا نجد عذرا له في مخالفة العدد الذي فرضه على نفسه ، على الرغم من ان عدم الالتزام بالعدد نفسه في كل طبقة لا يعد– من وجهة نظر البحث – عيبا منهجياً!
2. لم تكن مهمة ابن سلام حصر واستقصاء جميع الشعراء ، ولكنه ولسبب لم يذكره – اسقط من حسابه كثير من الشعراء الغزليين وعلى راسهم عمر بن ابي ربيعة ، ولا يذهب البحث مع من يرى ان اهمال ابن سلام له كان (موقفا اخلاقيا وتعصبيا على عمر بن ابي ربيعة لتعهره)[40] ، لأنه ذكر امرؤ القيس وجعله على راس الطبقة الاولى ، وعمر يسير على شاكلته واذا كان ابن سلام قد اتخذ موقفه من عمر لان عمر اسلامي وامرؤ القيس جاهلي، فانه قد ذكر الفرزدق – وهو اسلامي– ابياتا يتعهر بها – على حد تعبيره – بل وصفه بانه (اقول اهل الاسلام في هذا الفن)[41]
3. جعل ابن سلام طبقة خاصة لشعراء اليهود ، ولم يجعل لشعراء المسيحية طبقة مماثلة ، مع ان المسيحية كانت اكثر انشارا بين العرب.
4. عندما حاول ابن سلام ان يفرض عدداً معينا من الشعراء في كل طبقة فانه قد اضطر الى تأخير اوس بن حجر ((مثلا)) الى الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية ، مع ان ابن سلام كان يراه ضمن

الطبقة الاولى لانه يقول: (أوس نظير الاربعة المتقدمين ، الا انا اقتصرنا في الطبقات على اربعة رهط))[42]

وكذلك جعله يلحق بالطبقة المتقدمة من لا يساويها رتبة، كما فعل مع الراعي اذ الحقه بجرير والفرزدق والاخطل ، فهو يقول: (فاختلف الناس في الاربعة اشد الاختلاف واكثره ، وعامة الاختلاف او كله في الثلاثة ، ومن خالف في الراعي ، فقليل ، كأنه آخرهم) [43]

وعلى الرغم من ذلك كله ، فان ابن سلام قد خطا بـ ((طبقات فحول الشعراء)) خطوة علمية رائدة نحو تقعيد النقد وتركيزه، ومحاولة تطبيق المنهج العلمي.

الخاتمة

تبلورت الحركة النقدية أواخر القرن الثاني الهجري حول الفحول والشعراء السابقين ، وكان من نتائج تلك الحركة ان ظهرت مجموعة من المقاييس استخدمها العلماء والنقاد في تمييز الشعر وتفضيل شاعر على آخر ، والحكم له او عليه، وقد شهدت تلك الفترة بداية تأسيس المدرستين اللغويتين في البصرة والكوفة، وكان من الطبيعي ان يتجه اللغويون الى الشعر القديم طلباً للشاهد ولما أطالوا مدارسة القديم وألفوه وأعجبوا به، ثم تحول الإعجاب الى ضرب من التعصب.

وقد مثل جهد بن سلام تلخيصا متطورا لآراء شيوخه اللغوين في كتابه ((طبقات فحول الشعراء)) بأول محاولة علمية منهجية في النقد العربي. واذا كان الملاحظ على ابن سلام انه تجاهل الحديث عن الشعراء المحدثين تجاهلاً تاماً . فان ذلك التجاهل يعود على ما اعتقد الى امتداد نظرة اللغويين من شيوخ ابن سلام للقديم، من جهة ، ويعود من جهة اخرى الى ان ابن سلام قد وجه كل اهتمامه في محاولة تنقية الشعر العربي القديم من اثر الانتحال فكان من الطبيعي ان يوجه كل عنايته لذلك الشعر الذي كثر فيه الوضع والانتحال صارفا النظر عن الشعر المحدث الذي لم يداخله – في عصر ابن سلام – أي اثر للوضع او الانتحال.

ومن خلال هذه الدراسة الموجزة ، فان البحث يرى ان ابن سلام قد استطاع في كتابه ((طبقات فحول الشعراء)) ان يحقق الاتي:-

1. ان يقوم بوضع اللبنات الاولى للنقد العربي المنهجي المبني على اسس علمية
2. ان يستفيد من الاراء النقدية التي كانت سائدة في عصره ، وتلك التي كانت سابقة له ، وان يوظفها في كتابه.
3. ان يقوم باول محاولة لدراسة الشعر والشعراء دراسة منهجية في النقد العربي ، محاولاً وضع بعض الاسس والمعايير النقدية.
4. ان يمتلك فضل الريادة في القيام باول محاولة علمية لدراسة الانتحال في الشعر العربي ، وقد افاد منها النقاد العرب المحدثون ومن قبلهم المستشرقون عند دراستهم للانتحال في الشعر العربي القديم.
5. ان ينبه على ضرورة وجود الناقد المتخصص ، محددا اهم الشروط اللازم توفرها فيه.
6. ان تسجل له الاولوية في التنبيه على اثر البيئة في الشعر، كحديثة عن شعراء المدينة ولطافة حسهم ، وارجاع ذلك الى حياتهم الحضرية بخلاف البدو؟
7. ان يشير الى اثر الظروف الاجتماعية في الشعر والشعراء، عندما علل قلة الشعر – شعر الحرب – في بعض القرى لقلة حروبها.

ونزيد على ذلك ..... اننا عندما ننظر لعمل ابن سلام في اطار عصره – واضعين نصب اعيينا كل المؤثرات في ذلك العصر – نرى ان عمله في غاية الاهمية وكان مفتاحاً لكثير من الدراسات النقدية التالية.

الهوامش

1. سعيد/، جميل وزميله: نصوص النظرية النقدية في القرنين الثالث والرابع للهجرة: 13
2. انظر: مقدمة الطبقات بتحقيق محمد محمود شاكر، المصادر الادبية واللغوية لمعز اسماعيل / مصادر الادب للطاهر احمد مكي .
3. الطبقات: ج1/ 38.
4. سلوم، داود: النقد العربي القديم بين الاستقراء والتاليف : 202 .
5. عتيق، عبد العزيز : تاريخ النقد الادبي عند العرب: 282.
6. اسماعيل ، عز الدين : المصادر الادبية واللغوية في التراث العربي
7. عتيق، عبد العزيز : مرجع سابق : 283.
8. الدقاق ،عمر : مصادر التراث العربي : 393.
9. الطبقات : ج1/ 5
10. اسماعيل ، عز الدين: مرجع سابق : 230.
11. الطبقات : ج1/ 7.
12. المصدر نفسه: ج1/ 5.
13. مكي، الطاهر أحمد : دراسة في مصادر الادب: 101.
14. الطبقات: ج12/ 56.
15. المصدر نفسه: ج1/ 24.
16. المصدر نفسه: ج1/ 25 .
17. المصدر نفسه: ج1/ 46.
18. المصدر نفسه: ج1/ 48.
19. ضيف، شوقي: العصر الجاهلي: 165.
20. ابراهيم طه أحمد : تاريخ النقد الادبي عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن الرابع الهجري.
21. الدقاق، عمر: مرجع سابق : 237.
22. عباس احسان : تاريخ النقد الادبي عند العرب : 79.
23. مكي، الطاهر احمد: مرجع سابق : 104.
24. شرف، حنفي محمد : النقد الادبي عند العرب .. اصوله، قضاياه مناهجه: 248.
25. عتيق، عبد العزيز : مرجع سابق : 248.
26. طبقات الشعراء : ج1/ 24.
27. مندور، محمد: النقد المنهجي عند العرب : 13.
28. طبقات الشعراء : 1/ 215، 233.
29. مندور، محمد : النقد المنهجي عند العرب.
30. الطبقات: ج1/ 203.
31. المصدر نفسه: ج1/ 155.

32. المصدر نفسه: ج1/ 134.
33. المصدر نفسه: ج1/ 147.
34. المصدر نفسه: ج1/ 147.
35. سلوم، داود :- مرجع سابق :- 204.
36. الطبقات: ج1/ 196.
37. المصدر نفسه: ج1م 139.
38. المصدر نفسه: ج12/ 228.
39. مكاوي ، عبد الغفار :- قصيدة وصورة: 7
40. سلوم، داود : مقالات في النقد الادبي : 120.
41. الطبقات: ج1/ 44 .
42. المصدر نفسه: ج1/ 97.
43. المصدر نفسه: ج1/ 299.

* انظر: عبد الرحمن ، منصور: اتجاهات النقد الادبي في القرن الخامس الهجري : 13-14 .

** ذكر محمد محمود شاكر في مقدمته لـ (طبقات فحول الشعراء) اسماء شيخ ابن سلام في كتابه.

*** انظر: المسلوت ، عبد الحميد : نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي.

المصادر والمراجع

- ابراهيم ، طه أحمد : تاريخ النقد العربي عند العرب ... من العصر الجاهلي الى القرن الرابع الهجري.
- اسماعيل ، عز الدين: المصادر الادبية واللغوية في التراث العربي ، دار النهضة العربية، بيروت، 1976م.
- الاسد، ناصر الدين: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية . دار المعارف ، القاهرة ، 1956ط.
- الجمحي ، محمد بن سلام : طبقات محول الشعراء – تحقيق : محمد محمود شاكر مطبعة المدني ، القاهرة 1974 م .
- دار الحكمة ، دمشق ، 1972 م.ط.
- الدقاق، عمر : مصادر التراث العربي ، دار المعارف ، القاهرة، 1968م.
- سعيد، جميل وزميله : النصوص النظرية النقدية في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد.
- سلام ، محمد زغلول: تاريخ النقد العربي .. الى القرن الرابع الهجري، دار المعارف، القاهرة .
- سلوم ، داود : النقد العربي القديم بين الاستقراء والتأليف . مكتبة الاندلس ، بغداد ، ط2، 1972م.
- سلوم، داود : مقالات في تاريخ النقد العربي ، وزارة الثقافة والاعلام، العراق ، دار الرشيد 1981م.

- شرف ، حنفي محمد : النقد الادبي عند العرب .. اصوله وقضاياه مناهجه، مكتبة الشباب ، مصر ، ط2 ت.
- ضيف، شوقي: العصر الجاهلي. دار المعارف، القاهرة، ط2 1956م.
- عبد الرحمن، منصور: اتجاهات النقد الا دبي في القرن الخامس الهجري. مكتبة الانجلو المصرية، 1977م.
- عباس، إحسان : تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر في القرن 2 الى القرن 8 الهجري . دار الثقافة، بيروت ، ط2 ، 1978م.
- عتيق، عبد العزيز: تاريخ النقد الأدبي عند العرب. دار النهضة العربية، بيروت، ط4، 1980م.
- المسلوت، عبد الحميد : نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي. دار القلم ، القاهرة.
- مكاوي، عبد الغفار: قصيدة مصورة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، الكويت ، 1987 .
- مكي، الطاهر أحمد: دارسة في مصادر الادب . دار المعارف القاهرة، ط3، 1976 م.

مندور، محمد: النقد المنهجي عند العرب، دار النهضة مصر للطبع والنشر ، ت.